

الحوار في لغة قصة الطفل في الجزائر

Dialogue in the language of the child's story in Algeria

1 أوبشير نصيرة*

جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس (الجزائر)، oumkletoum@gmail.com

مخبر تجديد البحث في تعليمية اللغة العربية في المنظومة التربوية الجزائرية

2 أ.د طيبي أمينة

جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس (الجزائر)، a_tsba@yahoo.fr

تاريخ الارسال 2024-10-05. تاريخ القبول 2024-11-23 تاريخ النشر 2024-12-31

ملخص:

تعدّ القصة من أهمّ الوسائل التي يقوم عليها التكوين العقليّ والتّفسيّ والعاطفيّ والخياليّ، يتمّ من خلالها التواصل الاجتماعيّ والإنسانيّ والانتمائيّ الخاص، بما تحدّثه في نفوس الأطفال من راحة أو قلق أو ما تغيّره في سلوكهم، وتكوين شخصيتهم.

وقصة الطفل كقصة الرّاشدين، يمكن أن تتناول كل جوانب الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، وهي لا تعدّ ولا تحصى، لكن مع هذه الكثرة، فإنّ الأمر يحتاج معرفة ميولات الطفل، واهتماماته وخبراته، مما ييسّر على الكتاب تنويع الموضوعات الملائمة للأطفال.

الكلمات المتاحية: القصة، الحوار، أدب الطفل، اللغة.

Abstract:

The story is one of the most important means on which the mental, psychological, emotional and imaginative formation is based, through which social, human and affiliative communication takes place, with what it causes in the hearts of children of comfort or anxiety or what it changes in their behavior, and the formation of their personality.

The story of the child, like the story of adults, can address all aspects of individual and social life, and they are innumerable. However, with this abundance, the matter requires knowledge of the child's tendencies, interests and experiences, which facilitates the writers to diversify the topics suitable for children.

Keywords: Story, dialogue, children's literature, language.

1. مقدمة:

تعدُّ القصة من أهمِّ الوسائل التي يقوم عليها التكوين العقلي والنفسي والعاطفي والخيالي يتمُّ من خلاله التَّواصل الاجتماعي والإنساني والانتمائي الخاصُّ بما تحدّثه في نفوس الأطفال من راحة أو قلق أو ما تعيَّره في سلوكهم تعدُّ القصة من أهمِّ الوسائل التي يقوم عليها التَّكوين العقلي والنفسي والعاطفي والخيالي، يتمُّ من خلالها وتكوين شخصيتهم.

وقصة الطفل كقصة الرّاشدين يمكن أن تتناول كلّ جوانب الحياة الفرديّة و الاجتماعيّة وهي لا تعدُّ ولا تحصى ولكن مع هذه الكثرة فإن الأمر يحتاج معرفة ميولات الطّفل واهتماماته وخبراته مما ييسّر على الكتاب تنويع الموضوعات الملائمة للأطفال.

تكتب القصة لتعالج موضوعا "والموضوعات ملقاة على قارعة الطريق يلتقطها الكاتب المبتدئ، والكاتب الذي استحصدت ملكته، وإنما المهم طريقة الكاتب في علاج موضوعه وتجليه"¹، ومعنى هذا أنّ الإبداع القصصي يجب أن يكون خلافاً، والقصة الموجهة للأطفال في الجزائر ينبغي أن تتجاوز موضوعات التقليد وتكييفها بما يواكب تطّعات الأطفال في عصرهم، لأنّ الإبداع بطبيعته "يحمل الجديد ويعلم ويطوّر"²، لأنّه يحاول استشراف معطيات المستقبل حتّى يبنى جيل يحافظ على هذا المستقبل .

في هذا الصدد، من الواجب الإشارة إلى قضية مهمّة تتعلق بتداخل مفهوم القصة ومفهوم الحكاية في الكثير من الأحيان تداخلاً يجعل التفريق بينهما صعباً، ووضع الحدود الفاصلة بينهما أصعب، وأنّ "القصة" في أدب الطفل في الجزائر قد استلهمت الكثير من موضوعاتها من "الحكاية" .

إذاً، فالموضوعات من نواح كثيرة نجدها مشتركة بين القصة والحكاية.

والمتنبّع للقصة المكتوبة للأطفال في الجزائر يجدها عاجلت بعض الموضوعات وأغفلت موضوعات أخرى، نظراً للظروف التي نشأت فيها، والاحتياجات الرّاهنة آنذاك، والأکید، أنّ البدايات كانت مع "القصة الدّينية".

إنّ الكتابة في الأجناس الأدبيّة ليست من السّهولة بمكان، إذ تتطلّب الكثير من الشروط والخبرة والمعارف العلميّة والإنسانيّة في أكثر تخصّصاتها التي تمكّن الكاتب من الولوج إلى عالم الطفولة واستشفاف ما في الحياة اليوميّة للطفل ؛ هذا الطفل الذي يحيا في مجتمع له ماضيه وحاضره ومستقبله ويتميّز عن المجتمعات المحاذية في الرّؤى والطموح، وتصوّر المستقبل .

فالكتابة في أدب الطفل لا تستند إلى الموهبة فحسب، وهي ليست علماً يكتسب فقط، بل هما معاً، فضلاً عن الخبرة الميدانيّة والممارسة الدائمة مع الدربة المستمرة.

واللغة هي وسيلة الكتابة، وعلى هذا الأساس، فهي الوسيط الذي يعبر منه الأدب شعراً أو نثراً إلى عقول وقلوب أطفالنا .

2. إشكالية دراسة اللغة في القصص المكتوبة للأطفال:

دراسة اللغة في أدب الأطفال، خاصة في القصص المكتوبة لهم، ليست بالأمر السهل، لأنّ لغة الطفل تختلف عن لغة الكبير اختلاف عقل الكبير عن عقل الصغير، مما يتطلب معرفة قضيتين جوهريتين هما:

الأولى: معرفة مفردات الطفل الأساسية وأنماطه اللغوية في كل مرحلة من مراحل نموه، ومراعاة قاموسه اللغوي، وهذه القضية ما تزال من القضايا المطروحة للبحث في البلدان العربية، إذ معظم الدراسات العربية تعتمد بشكل أو بآخر على الدراسات الأجنبية، وطبعي أنّها ثمة بحوث أجريت على أطفال لا يتكلمون اللغة العربية. وحسب ما جاء في دراسة العيد جلولي أنّ هناك محاولات عديدة حول دراسة اللغة عند الطفل في مراحل عمرية مختلفة، في الجزائر منها ما لم يطبع حتى الآن، فيستفاد منه.

وقد أصدرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم قاموس الألفاظ الشائعة بين أطفال المدرسة الابتدائية بعنوان "الرصيد اللغوي العربي لتلاميذ الصفوف الأولى من مرحلة التعليم الأساسي"؛ إلا أنّه من خلال محاولة العثور عليه في المكتبات، أو في الشبكة العنكبوتية للتّمثيل ببعض النّماذج، لم نجده موزّعا.

الثانية: عدم تحديد مستوى القصص للمرحلة العمرية من مراحل نموّ الطفل أو ما يعرف بالتقنين، أي وضع اللون الأدبي لمستويات محدّدة طبقا للخصائص المعينة لكل مرحلة، لمعرفة مدى موافقة هذه القصص لها، وتكمن أهمية ذلك في توفير إنتاج يتماشى ومستويات الأطفال كلّها، حسب فئاتهم العمرية، ونموّهم اللغوي، بالإضافة إلى تسهيل مهمة المربي في انتقاء ما يناسب الطفل، ذلك أنّ مرحلة الطفولة مرحلة شاسعة متباينة في مستوياتها اللغوية والنفسية وتختلف حسب البيئة والظرف والتربية.

لاحظنا أنّ معظم القصص الصّادرة في الجزائر-فيم حصلنا عليه- لا تقنّن هذه العناوين، أي لا تحدّد السنّ الذي كتبت له هذه القصّة. لأنّ مسألة اللغة هنا فاصلة، وطرق تقنين ذلك كثيرة، مثل تحديد عليها مستويات الصّف الدّراسي (السّنة أولى ابتدائي) أو الإشارة إلى الطّور الدّراسي (الطور الأول والثاني) أو تعيين الفئة العمرية (ما بين 3-6 سنوات) إلى غير ذلك من الكيفيات العلميّة.

كانت هناك محاولات لتقنين أدب الطفل في الجزائر في مجال القصة، وفي مقدمتها محاولات المؤسسة الوطنية للكتاب سابقا، غير أنّه بدا ارتجاليا، غير منظم ولا دقيق وسمته العشوائية؛ وهذا ما لاحظناه على أغلفة بعض قصص الأطفال.

ولحسم الإشكالية، ينبغي تشكيل لجان أو هيئات متخصصة في مجال اللغة والنقد وعلم النفس التربوي، وعلم الاجتماع والتربية، وعلم الجمال، للإشراف على كل خطاب أدبيّ موجّه للطفل في الجزائر، وتقنيه وضبطه، ويستعمل هذا الضبط للتّوجيه العلميّ الدّقيق لفئات الأطفال نحو المقروئية والمطالعة المفيدة.

ومهما يكن فقد بدأ الوعي الفعليّ بفلسفة أدب الطفل وملاءمته لفئات الطفولة ومراحلها العمرية، وصناعة الكتاب وتغليفه وتلوينه بما يساعد المتلقّي الصّغير الذي ينجذب للألوان والرّسوم، خاصة في سنوات

الألفية الثالثة، فنجد بعض السلاسل قد اهتمت بتحديد السن على الغلاف {من 8-10} باللون الأحمر ولكن بشكل صغير في الزاوية، أسفل الغلاف بشكل قد يغفل المربي عن ملاحظته، مثل سلسلة "جنة الأطفال"، و"حكايات جحا" من {8-12 سنة} بشكل واضح أما "مغامرات سندباد، فقد قُدمت للأطفال في شكل جميل حيث وضعت مقاطع القصة سرداً أو حواراً في مربعات ومستطيلات تقابلها رسوم تعبّر شخصيتها من خلال ملاحظتها المختلفة عن دلالات البنيات المختلفة مما ييسر على القارئ الصغير ما يقرأ ويرى.

3. لغة الحوار في القصة المكتوبة للأطفال :

إنّ النصّ الأدبيّ، سواء وجّه للكبار أو الصغار له خصائص إبداعية جمالية. من هذا المنطلق، ينبغي أن تتوفر شروط الجمالية في النصّ الموجه للأطفال إذ، لا بدّ للمتلقّي الصغير أن يدرك ما فيه من جمال وساحرة على المستويين اللغوي والأسلوبي بمراعاة حدود الطاقات الذهنية والتفسيّة واللغويّة، والمهارات التعليمية المكتسبة لدى الأطفال، ومستوى تحصيلهم العقليّ والمعرفيّ.

فالمبدع في قصّة الطفل عليه أن يكون صادقاً وأميناً في دراسة اللغة والتمكّن منها وصياغتها وبلورتها بطرائق مشوّقة تؤثّر في المتلقّي لأنّه بفعل هذا التأثير يشعر الطفل بالحزن أو الفرح ويتساءل عن الفقر والغنى ويكتشف العالم الطبيعيّ ويتعرّف على الأبحاد والبطولات ويتشرب القيم التي يقصدها المؤلّف لأنّ ما تصبو إليه كلّ أمة واعية هو خلق جيل واع.

تعتبر قضية اللغة وكيفية استعمالها في العمل القصصيّ الموجه للأطفال من القضايا التي احتلت كثيراً من الجدل والبحث، لأنها المقياس الأول في النصّ الأدبي-عامة-لأنّه لا يهمنا ماذا نقول وإنما يهمنا كيف نقول - خاصة في أدب الطفل - لذا نجد الأدباء والنقاد انقسموا فرقا، فمنهم من دعا إلى تبسيط اللغة وتيسيرها ليتسنى للطفل فهمها، فوضع معايير السهولة، والبساطة، والوضوح، ومراعاة السن والبيئة، والبعد عن معيار اللغة الصارمة التي تسجن الطفل ضمن تراث لغوي مقدّس لأنّ اللغة تتطوّر والتطوّر دليل الحيويّة، وما كان يصدّنا بالأمس، أصبح اليوم مألوفاً واللغة تسير الفكر.

وفريق آخر دعا إلى ضرورة الكتابة بلغة أدبيّة راقية وحجّته أن الطفل يمتلك قدرة عجيبة في فهم اللغة والتقاط مفرداتها، تشري عالمه بالتجارب، ثم تؤدي به إلى متعة شعوريّة وجمالية، مع مراعاة كيفية عرضها مع الإيجاء من خلال أسلوب ميسر، وقد يتعمّد بعضهم الرمز، والصعوبة في الألفاظ والغربة في بعض الصّور إيماناً بقدرة الطفل على الالتقاط والإدراك بالنّظرة الصّغار يفهمون بإحساسهم المتحفّز الصافي أكثر مما يفهم الكبار بعقولهم الصّلبة المرهقة، ومن هؤلاء نذكر سليمان العيسى.

قد نؤيّد ما ذهب إليه الفريق الأول بخصوص تبسيط اللغة ولكن دون الإسفاف، والنزول بها إلى حدّ الركاكة، كما نوافق الفريق الثاني فيم تعلق باللغة الراقية، ولكن دون الترفع في استخدامها إلى حدّ الإفراط والتشدد والتعقيد، وندعو إلى الكتابة بلغة منتقاة رشيقة تحسّن ذوق الطفل الفني وتطوّر حسّه الجمالي وتحمل المداليل

والمضامين المبتغاة لأنّها في أدب الطفل تتحوّل إلى هدف رئيسي يسعى الكاتب إلى تحقيقه من خلال عمله القصصيّ وليست مجرد وسيلة إيصال فقط كما هو الشأن في أدب الكبار.

والنص الأدبيّ تشكيل لغويّ ومن ثمّ يُسهم في تعليم الطفل هذه اللغة، عبر مراحل نموّه، وأي تساهل أو تشدّد في كيفية استعمال اللغة يتسبّب في أضرار بليغة؛ فتكثيف الموضوع القصصيّ الموجه للطفل يستتبع تكثيف مستوى الصياغة اللغويّة المتضمّنة للموضوع المقصود، فاختلاف وعي السامع المتلقّي يشترط اختلاف البنية اللغويّة.

وحيث نتتبع القصص الجزائريّة الموجهة للأطفال، لبحث اللغة فيها، لا سيما عند الأدباء الذين أثبتوا مقدرة على الكتابة للكبار، وأصابوا نجاحا في الكتابة للصغار، نجدها تمتاز في معظمها بالسهولة والوضوح والبساطة بعيدة عن تلك القوالب البلاغيّة والأنماط اللغويّة القديمة .

قد تجنّب الكتاب الألفاظ الغريبة الصعبة الثقيلة على السمع والفهم والنطق ، ومالوا إلى الألفاظ المألوفة ، نذكر منهم "حضر بدور، رابح حدوسي، عبد العزيز بوشفيرات، واسيني الأعرج، ابن هدوقة.."؛ ولكن في المقابل، وجدنا عددا من الكتاب استخدموا ألفاظا صعبة بهدف إثراء القاموس اللغوي للأطفال ، ثم أتبعوها بالشرح والتفسير ، ومثّل لذلك بالكاتب "محمد المبارك حجازي" الذي يعتمد اختيار المفردات الصعبة بغرض تنمية تحصيلهم اللغويّ، لأن القصة عنده معرض يتعرّف من خلاله الطفل على ألفاظ جديدة .
ففي قصّته : "النصيحة الغالية"³ يقول :

" السّكون الذي يطبع (يظهر-يضيء) الحياة فيه .

"...التي تُدرّ (تعطي وتمنح)..."

"...الغلال (الثمار والمحاصيل)..."

"دون خوف أو وجل (الوجل جمع أوجال وهو الخوف)..."

ومن كتابنا أيضا من لا يعتمد إلى اللفظة الصعبة إنّما يضطره التعبير لذلك فيشرحها داخل النص بوضعها بين قوسين، نذكر منهم "أحمد كاتب، محمد مشعالة، وخالد أبو جندي".
يبدو أنّها كلفة غير علميّة في تقديم خطاب ما للطفل، وعيها أنّها تفسد متعة الاسترسال لدى القارئ الصّغير، وتضطره للتوقّف لقراءة ما بين القوسين، وربطه بالتركيب، فيقطع ذلك شريط التخيّل والتصوّر وأنهمار الرّوى لديه حين ينشغل بالشرح.

والأجدي في ذلك، أن يوضع الشرح في عمود مستقل عن النص، أسفل الصفحة أو على جانبها أي على الهوامش أو وضع قائمة بالمفردات الصعبة وتثبيتها في جدول في نهاية القصة، لأن مهما يكن فهذا الشرح عامل إيجابيّ غير مباشر في تزويد الطفل بثروة لغوية في التعبير الوظيفيّ.

أما "مناف السّائحي" فعمدت إلى طريقة أخرى لتثبيت موضوع القصة في أذهان الأطفال، في قصتها "سماء الدّين والدّير العجيبة"⁴.

إنّما جعلت لكل محور مجموعة أسئلة بعنوان:

- "هيا نلعب مع الألفاظ الصّعبة" ومثال ذلك: لفظة: "الإبريز في جملة" و"سبائك من الذهب

الإبريز"، هل يعني: - المهشّم إلى قطع صغيرة - في الشّجر - الذهب الخالص.

ولكن من المفروض أن تكون المفردات أو العبارات المطروحة لبحث المعنى من حقل متقارب، فلفظة "في الشّجر" بعيدة جدّا لغويا ومعنويا عن حقل الإبريز، مما يشتت انتباه الطفل وفكره.

- "هيا نلعب مع أخطاء البطل".

وفي قصة "الصّوّص الذكي والثعلب" ختم الكاتب "رجب بن محمد" القصّة بمجموعة أسئلة حول

الفهم فرّبها كالتالي: - ملء الجدول ، ثمّ -ضع علامة X أمام الإجابة الصحيحة- ،

فملء الفراغ: "صرف وتصريف".

إنّما كيفة واضحة ومفيدة لأطفال المراحل الأولى "الابتدائية" توجّههم إلى تنشيط الفكرة، وتربط بين القراءة والفهم واستحضار الدّروس.

وقد عمد كتّاب آخرون إلى طريقة التّكرار، أي لا يقدم الكاتب الشرح للألفاظ الصّعبة المستعملة وإنّما يكرّرها في سياقات مختلفة مما يتيح للطفل فهمها ، ومثّل بما جاء في قصة "النسر والعقاب"⁵ "لعبد الحميد بن هدوقة" حين قال في الموضوع الأول :

"إنها مجهودات كبيرة لا يجشّم العاقل نفسه بها" وفي الموضوع الثاني: "أفضّل الصعاب والمخاطر وأجشّم نفسي كل عناء من أجل لقمة طيبة نقيّة".

ونرى أنّ مثل هذه العبارات اللّغوية توجّه إلى فئة الأطفال ما فوق 12 سنة، لأنهم في مراحل دراسيّة متوسّطة، وقاموسهم اللّغوي أكثر ثراء وكثافة.

غير أنّ ابن هدوقة في مواضع كثيرة لم يلجأ إلى التكرار وترك الألفاظ الصّعبة دون توضيحها ومن أمثلة ذلك (روى صده، أرخى أوصاله، ازوراره، المعامع...).

وقد لجأت الكاتبة "مليكة قريفو" إلى طريقة التكرار والتّرادف في قصصها الموجهة لفئة الأطفال ما بين

(4-6) لتثبيت الجمل في أذهانهم ومثّل ذلك ما جاء في قصة "كيكي غاضب لمليكة قريفو:

"كيكي وحيد هو اليوم وحده ، لا أحد معه ، أنا وحدي"

"دبي توسخ كثيرا ، وعليّ أن أغسل دبي ، عليّ أن أغسله"

"كملت ، انتهيت ، نظفت دبي ، غسلته..."

هذا التّوع من التكرار للمفردات المألوفة من شأنه تثبيت المفردة والدّلالة معا في ذهن المتلقّي الصغير.

ومن محاسن الكتابة الطفليّة التي يجب أن يعيها الأديب، "مسألة الترادف" لما للجانب الإدراقي من وشائج مع النفس، في تركيب الأسلوب والصّورة الأدبية، ذات الإيقاعيّة العجيبة. وكلما كثرت المترادفات كلّما أوجت اللفظة بسعة ظلالها الدلالية، أمّا تلك التي تكتفي بوحدة المادة اللفظيّة المعجميّة فقليلة الوظيفيّة، مرتبطة بمادتها المرجعيّة.

ومن المآخذ التي يمكن تسجيلها في القصة الموجهة للطفل في الجزائر، احتواؤها على الأخطاء النحويّة والصرفيّة واللغويّة، خاصة أنّ الطفل في مرحلة تلقيه لمجموع المعارف المحمولة المكونة لبنية الكفاية اللغوية لديه، فقراءته تعدّ تمرينا على القاعدة النحويّة والصرفيّة وطرائق التعبير جميعا.

ومن ذلك ما جاء في قصة لبن طير سعادبعنوان "أين دموع أغيلاس؟":

"في يوم من الأيام، بينما كان "أغيلاس" جالسا تحت شجرة الزيتون، وهو كئيب، سمع صوتا يقول: "ما بك أيها الطفل الصّغير؟، لماذا أنت حزين؟، فرفع أغيلاس عيناه، فإذا به يرى القمر الساطع...". كذلك في قصة "العصفور السّجين" لبن محمد رجب: "فرح الصّبي فرحا شديدا بهذا العصفور الجميل، وقال في نفسه: "أصنع قفصا، أضعه فيه، وسيجعلني أفق من نومي كل صباح على تغاريد...". وجاء في قصة "عندما تصبح العصافير صقورا" بلحواص نصيرة، عبارة: "(...) والعضّ عليها بالنواجذ حتى لا تفشل قوّتنا وتذهب ريحنا...".

وفي قصة "الطفل الصّغير" ورد ما يلي: "...حتى فكر الزوجان الفقيران في التخليص من أولادهما"

"وخرج يلتقط مجموعة من الحصى الأبيض..."

"فتسلق الطفل الصّغير في شجرة عالية..."

وفي قصة "كبيكي غاضب" أخطاء تعبيرية وصرفية فادحة ومثال ذلك:

"هل تأتي اليوم؟" *

"وحطّ ديدي السّماعه وأقفلت الهاتف"

"بهذا أراد أن يكلم ديدي بالهاتف"

في الجملتين ركافة في التعبير .

هذه نماذج للتمثيل وليس للحصر، لأننا لسنا بصدد استعراض كل الأخطاء في كل القصص، فهي كثيرة . إنّ اللّغة في قصة الطفل ذات أولوية قصوى، لذا ينبغي على الأديب أن يخضع لقواعدها وأصولها وما تقتضيه ملكتها حتى يكتسب الطفل في كل مرحلة معيارية لغوية سليمة تؤهّله مستقبلا للتّحريب والتّطبيق. ومن سمات اللغة في القصة الطفليّة في الجزائر، توظيفها الجمل القصيرة (فعلية واسمية) وهذا الاستخدام أفيد في أدب الطفل، لأن الجمل القصيرة تؤدّي الفكرة في زمن قصير وفي أوضح صورة، فلا تتعب ذهن الطّفل أثناء تركيزه، ولا تصيبه بالملل، فينصرف عن الانتباه، وفي قصة "مرحبا بالسحابة" "لمحمد دحو" نماذج

لذلك: "طار النداء، حملته أجنحة الريح، وريش الطير، الحشد هائل، اللقاء أثمن من ذهب الدنيا، الإنسان سيد المكان، طأطأ رأسه، رفعه، توالى أفكاره (...) فتفتحت أجنحتها، هبّ النهر، ردّد الجميع: "لينزل المطر، لينزل المطر."

بالإضافة إلى الأسلوب المتين في القصة، فقد كانت المتتالية من الأحداث في غاية الدقة، حافلة بالصّور الحيّة، المتسارعة مما ينشط ذهن القارئ الصغير.

وتجدر الإشارة إلى بعض الخصائص في لغة الخطاب الموجه للأطفال والتي اتفق على تحديدها معظم المهتمين بلغة الطفل:

- البساطة والبعد عن غرائب الألفاظ.
- مناسبة القاموس اللغوي لعمر الطفل المخاطب.
- العناية بالقواعد وضبط الكلمات الهامة بالشكل والعناية بسلامة اللغة.
- الميل للألفاظ والتراكيب الحسية وترك التجريد إلى المراحل المتقدمة.
- استخدام الفصحى السهلة والاقتصار عليها وترك الشائبة اللغوية.
- التدرج بالأسلوب الفني مرحلة فمرحلة.
- صوغ العناوين بكيفية مؤثرة.
- الابتعاد عن أسلوب الوعظ والإرشاد والنصح المباشر في الحوار.
- ضرورة الاحتفاظ بالطابع الفني في اللغة والابتعاد عما يوحى للطفل بأنّ هذا العمل الأدبي جزء من منهج دراسي، أو كتاب مقرر، فتضيع عناصر التشويق.
- وقد أجملها المهادي نعمان الهيثي في أربعة عناصر: "الاقتصاد والوضوح والقوة والجمال".

4. أشكال الحوار في القصة المكتوبة للأطفال:

ويعتبر الحوار "ظاهرة عامة تقريبا ولا تنفصل عن النطق البشريّ وشئ تجارب الاتصال بين الناس وأشكاله وعن كل ما يملك معنى ودلالة وحيث يبدأ الوعي يبدأ الحوار"⁶.

الحوار عنصر أساس في الخطاب القصصي -بخاصة الحديث- وهو في قصة الطفل جزء مهم، يرسم من خلاله الكاتب ملامح الشخصيات، ويقرّبها من نفسيّة الطفل حين يكشف عن عواطفها وأحاسيسها المختلفة في صراعها مع الأحداث والشخصيات الأخرى، فيجعله يتفاعل ويتواصل معها، ويصير جزءا من مشاهد القصة.

والبنية الحوارية في قصة الطفل تختلف من أوجه كثيرة عن الحوار في قصة الكبار، كونه بالنسبة للكبار ينبثق من وعي نقديّ، ويحمل تضمينات دلالية فكرية وفلسفية توجه بالشخصية إلى أبعاد اجتماعية ورؤى إنسانية، في حين أنّ "حضوره في قصة الطفل يتسم بعدم ردّ الفعل التقدي من لدن الطفل المتلقّي فيحرّمه من عمليتي التّجاوز والتخطّي، ويبقى مجاله تعليميا تربويا قبل كل شيء.

ويقوم على شروط ليكون ناجحا :

- ينبغي أن يندمج الحوار في صلب القصة فلا يكون دخيلا عليها .
 - أن يتسم بال تلقائية وموافقة الشخصية والموقف .
 - أن يكون قصيرا مستوفيا، ذا كلمات قليلة كافية مفهومة.
 - أن يتوازن في عمليتي التناوب بينه وبين السرد.
 - أن لا يتخذ شكل السؤال والجواب بين الشخصيات كونه يتوجه للأطفال، وإنما، أن يحمل مضمونا يناقش.
 - أن يتعد عن الأسلوب الوعظي والإرشادي المباشر، فيصبح منبرا للخطبة، فيفقد صفته الفنية في عمل - من المفروض - فني.
 - أن يحمل قيما ضمنية، فلا تطرح فيه صريحة، فيفقد العمل تأثيره النفسي المناسب الذي من شأنه تحريك سلوك الطفل، حين يستنبط بنفسه تلك القيمة ، بشكل أو بآخر.
- على هذا الأساس فالكاتب الناجح هو الذي يحسن اختيار أفعاله الإنجازية والمقام والسيئات التي تؤدي فيها، في ثنائية التناوب، بتقنية فنية يجذب لها الطفل ويتفاعل مع الشخصيات ، بعيدا عن حشو الأفكار والأقوال ، لأنّ البنية القصصية إذ تتراوح بين السرد والحوار ، تعمل على تكييف المسار التركيبي الذي يكتنفه النفور من القصّ الأحادي البنية، إضافة إلى ما تتراح إليه النفس من حبّ تقديم الفهم عن طريق البنيات الثنائية التي "تشكل أجواء نفسية تعين المتلقي على استيعاب الخطاب.
- وتتميز في الكتابة القصصية للصغار في الجزائر ، أربعة أصناف من القصّ:
- ما يخلو من الحوار تماما ، ويتفرد فيه الصوت الحاكي بالدور الرئيس، ومعلوم أنّ السرد بنية موافقة لوعي الطفل، فعقليته تعتمد السداجة والبساطة والوضوح في تركيب الأشياء ووعيها، وتمثل لذلك بقصة "القصر المسحور" و"عجائب العجب"، و"قصص السندباد"، وهذا مذهب الحكاية الأسطورية الخرافية.
 - ما تناوب فيه السرد والحوار، كبنية قصصية غالبية في النصّ الأدبي الحديث، تبعا لما تؤكد الحياة الواقعية المنطقية، ونذكر من هذا النوع قصة "بجراح المرتاح" للطاهر وطار، و"سماء الدين والقدر العجيبة" للسائحي مناف، والتي نقتطع منها هذا النصّ: "بمجرد أن مسح عن عينيه أثر النعاس ، يهبّ من فراشه قائما، ويقبلها قائلا: "ما أسعدني بك يا أمّاه ، لو تعلمين كم اشتقت إليك منذ اليوم".
 - فابتسمت متعجبة وقالت : "كفى تحامقا وأسرع لندرك الصلّاة والمؤدّب ، ولا تنس وصيّة أبيك".
 - فمألاً صدره بالعزم وقال : "لا تخشي شيئا يا أمّاه ، فلن أخيّكما". ثم قال بصوت غير مسموع وهو ينطلق مسرعا : "آه ، لو بقي معي شيء من ذلك الكنز !!".

- ما غلب عليه الحوار الداخلي، وإن قلّ في قصة الطفل -عامة- وخير ما تمثل به قصة الرجل الصالح وسرّ الحمامة والكنز والسبب في حضور الحوار الداخلي المكثّف في هذه البنية القصصية هو انصراف البطل "الرجل الصالح" إلى التأمّلات التعبدية والتصوّفية، في هدوء المكان البعيد الذي انزوى فيه، واسترسل في تساؤلاته في بناء خواطره، والملاحظ في القصة أن الشخصية التي أدّت هذا الحوار، شيخ حكيم وليس طفلاً، لأنّ الطفل لا يدرك هذا الشّكل في الحوار الذي يتّصل بالذّات العميقة، والاستبطان الضّمّي للأفكار، وهذا ما يملّيه التّجاوب الحسيّ مع الموضوع، ونسجّل هذا المقطع من قصة الرجل الصالح لزيتوت الأخضر: "فأين هم الرّجال الذين صانوا هذا الكنز؟ لماذا تركوه هنا عشرات السنين؟ ماذا يعمل أجاب الرّجل بنفسه عن هذه الأسئلة وهو يحرك رأسه أسفاً، بعد أن أغمض عينيه عمّا يراه في الحقيقة من بشاعة".

- ما اعتمد الحوار صيغة غالبية على البناء القصصي، فجاءت البنية الحوارية صياغة فنية مستمرة استمرار النصّ، فنحا بالقصة منحى الغرابة والتكلف، لافتقادها صفة المروحة الشائبة في السياق القصصي، بين السرد والحوار؛ ومثال ذلك قصة "الصدق والوفاء" إذ احتوت على اثنين وتسعين مقطعاً. إنّ اعتماد الحوار المستمرّ في القصة يُفقد الطّفل المتعة النفسية التي تنتج عن ضروب الصياغة الجمالية للنصّ القصصي ويذهب بشروط الإقناع فيقع النصّ في الفتور الأدبيّ ويفسد الذّوق ويقعد بالطفل المتلقّي بعيداً عن أن يطوّر ملكته الجمالية، وهذا المقتطف من القصة يبيّن ذلك:

"-عائشة: بعد انقضاء الحجّ إن شاء الله، أعود مباشرة إلى ديارنا؟

-أحمد: بكل تأكيد...

-عائشة: حسناً... ولكن.

-أحمد: ماذا؟

-عائشة: لقد أخبرتني.... أنك ستبقى مدّة في مكّة قصد التجارة.

-أحمد: صحيح... ولكن.

-عائشة: ما وراء لكن... يا أحمد؟"

وما يستخلص من هذه البنية الحوارية كثرة البياضات بين الكلمات والمقاطع خلال التناوب الحواريّ، الأمر الذي يجعلنا نتساءل عن المغزى منها، لأنّ المعروف أنّ لجوء بعض الكتّاب في القصة عموماً إلى هذه الفراغات المبيضة أو البياضات المتقطّعة له دلالات سيميائية، تستبطن من الوحدة التركيبية. كما نلاحظ المبالغة في القصر في أكثر من مقطع حواريّ ما جعله في السياق أقرب إلى المحادثة، منها إلى البنية القصصية التي تتراكب فيها الزمكانية مع الحدث وحركة الشخص.

أمّا تركيز الكلام والإيجاز الشديد في مواقف الحوار فقد أدّى بالسياق اللّغويّ إلى نوع من الغموض نتج عن إضاعة الخيطيّة التّحوّية الإسناديّة، ونابت هذه البياضات عن الكلام المحذوف .

قد يؤدّي هذا الكلام المحذوف إلى عملية تربويّة نفسيّة تضطر الطفل إلى محاورّة البنية الحوارية، فتدفعه إلى التّحمين والاستنتاج، ولكن من ناحية الفكرة المقصودة فهذا ينتقص من تكامل البنية القصصيّة وجمالية استرسال الخطاب فيها ، فكثير من المواقف التعبيرية تخلو من المركز الإسناديّ ، مكتفية بالإشارات الحاليّة التي تفيد الحركة الجزئيّة التي لا تستوي دلالتها إلا بالإشارة من الأعضاء، ومثال ذلك:

(أحمد :ماذا؟) ، (أحمد : صحيح...ولكن) ، (أحمد : بكل تأكيد) و(عائشة : حسنا...ولكن).

يعتبر الحوار البنية التّنويّة الأكثر حضورا في الخطاب إلى جانب السّرد، فينهض بجماليّتها الحيويّة، لا لشيء إلا لكونها أكثر حيويّة وواقعيّة تنقل النّص القصصيّ من حال الانغلاق والصّرامة إلى حال الانفتاح على التجربة الواقعيّة"، لأنّ الطّفل قد تسأم نفسيّته إذا كان الخطاب سرديّا متّصلا .

إنّ البنية الحواريّة منهج للتّفكير يتدرّج بالقضايا بما يساعد المتلقّي الصّغير على تتبّعها وتركيبها وترتيبها وصولا إلى النتيجة النهائيّة عن طريق التّواصل والتّفاعل مع النّص .

إذا، فالاهتمام بالبنية الحواريّة في قصة الطفل، عامل مهم لنجاحها وبلوغ أهدافها التعليميّة والتربويّة والجماليّة.

وقد اهتمّ كتابنا في الجزائر بالبنية الحواريّة في قصة الطفل، لأننا وجدناها -في مجملها- تحتوي على الثنائيّة التناويّة التي تساعد المتلقّي على التشكيل السياقيّ القصصيّ ، على ضربين : خارجيّ وداخليّ: ونرى أنّ هذين الصّنفين منطقيّين في قصة الطفل، قريين من الواقعيّة الأدبيّة ، وكلاهما مختصّ بتناول جانب من الذات عملا على تحقيق غاية فنيّة جماليّة تسعى إلى تمتين الإقناع التشخيصيّ لشخص الموضوع القصصيّ مما يحدث المروحة بين أنواع الحوار في العمل القصصيّ.

وقد عرضنا لأنماط الحوار -وهي كثيرة- والتي أصبحت ميزة فنية جماليّة في القصة الحديثة الموجهة للكبار، ولكن في قصة الطفل وجدناه اقتصر على نمطين :

4-1 خارجيّ (ثنائيّ/تناويّ) مجرّد من الوصف والتحليل والرميز:

وهو الأنسب في قصّة الطفل ، حيث ينبنى على فعل إجرائيّ وردّ فعل سريع وإجابة سهلة واضحة عن استفهام واضح مباشر يتعد عن التّفكير الفلسفيّ والتّلميحّي والإيحائيّ، توافقا مع وعي الطفل البسيط، وسذاجته، وبساطة استنباطه للأشياء، فمفردات الحوار فيه لا تشمل التّأويل البعيد، المعقّد ، وتأتي الإجابات عنها متوقّعة، عادية ليست فيها رؤية خاصة ، بما يناسب فكر الطفل .

ونعرض بعض النماذج من قصص اخترناها ؛ ففي قصة: "مغامرات النملة كحيلة" لمفلاح محمد: "في أحد الأيام، رأتها أمها أمام مائدة الطعام، وأخواتهنّ ينتظرن فقال لها: "يا بنيّ(كحيلة)، أنت تكرهين

العمل ولا تسعين في جلب القمح، ولكنك شرهة تحبّين الطعام الكثير الشهي، وتأكلين قبل العائلات، ألا تخجلين؟.

قهقهت (كحيلة) الساذجة، وخاطبت أمها اللطيفة قائلة: "العمل ليس شرفاً لأنه مرهق للجسم والنفس، وأنا أحب أن أكون أفضل من أخواتي العائلات".

قالت لها أمها اللطيفة: "أنت مخطئة، بالعمل وحده نسعد، أنظري هذا البيت الذي يأوينا من البرد القارس والأمطار الغزيرة، من أقامه؟ والمعطف الذي ترتدينه من نسجه؟ والأرض التي تعطينا القمح من حرثها؟ فكري جيداً؟"

نجد أنّ الكاتب قد استخدم اللغة الفصحى إلا في عبارة (تجري إلى الفراش) والأصح (تسرع إلى الفراش) فيما تبقى من الحوار، وهي لغة أنيقة، مفهومة، جميلة النّسج، بعيدة عن التّعقيد، في تناول المتلقي الصّغير، المفردات مألوقة دون إسفاف بشكل تجعل القارئ ينساب مع الفكرة دون انقطاع، والتناوب بين المتحاورين متوازن من حيث بنياته ووحداته غير أنّنا نرى أنّ مقاطع الحوار كانت طويلة نوعاً ما حيث احتوى كل مقطع على أكثر من فكرة، وكان يمكن تقسيمه إلى بنيات حوارية أخرى، مثلاً: "قالت أمها اللطيفة: "أنت مخطئة، بالعمل وحده نسعد"، تستفهم (كحيلة) ساخرة: "وكيف ذلك؟ اشرحي لي؟".

تبتسم أمها وتقول لها: "انظري إلى هذا البيت الذي يأوينا من البرد القارس والأمطار الغزيرة من أقامه؟". ويتواصل الحوار بين الأم وكحيلة على هذا المنوال، حتى يسهل على الطفل إدراك كل جزئية من الفكرة العامة (العمل شرف وكرامة) على حدة، ويعمل على تركيبها بالتدرّج.

4-2 داخلي (فردى-أحادي):

وجدنا هذا الحوار حاضراً في قصة الطفل على شكل ومضات قليلة، في صيغة المونولوج حيث يدور الحوار بين الشخصية وذاتها في موقف معيّن، ولم يتعداه إلى الأنواع الأخرى، كتيار الوعي أو مناجاة النفس أو الاسترجاع، لأنّ ذات الطفل وفكره لا تتميز بالعمق والانفراد الذهنيّ البعيد، والقدرة على الاسترجاع والتجزيء الزمّني، والتركيب لقطع الصّور في الذات الباطنية، واستبطان الذكريات، إنّما حدود قدرته قبل التّضج الفكريّ والعاطفيّ تكون في تكوين قدر معيّن من التّساؤلات السّطحيّة مع ذاته؛ ونمثّل لذلك بقصة "مغامرات سندباد" لخليفة عيسى: قال سندباد في نفسه: "آه، تعبت، لم ألتقط أنفاسي، منذ الفجر وأنا أغدو، وأروح بلا توقف".

وضع السندباد البحري رزمتة الثقيلة على المصطبة وجلس: "فلاأخذ قسطاً من الراحة على هذه المصطبة، ريشما، أسترجع قواي، تراجع صحتي، ولم أعد أقوى على حمل هذه الأثقال، (...) الحمد لله على كل حال.

5. خاتمة:

وتجدر الإشارة إلى أن كاتب قصة الطفل، محكوم بإدراك المقام جيدا، لأنه يكتب لفئة يصعب التعامل معها، إذا لم يدرك مستوياته المقامية والسياقية الاجتماعية والعقلية والنفسية والثقافية، التي تختلف كل الاختلاف عن مقامات الكبار، لأن الرسالة الموجهة إليها لها خصوصياتها التربوية واللغوية والإيديولوجية.

6- الهوامش:

- ¹ - نجم محمد يوسف، فنّ القصة، ط5، دار الثقافة، بيروت: 1966م، ص ص55-56.
- ² - عبد السلام يحي، سيمياء القصّ لأطفال في الجزائر الفترة مابين 1980-2000، أطروحة دكتوراه، جامعة سطيف، الجزائر، 2010-2011، ص39.
- ³ - حجازي محمد المبارك، قصة "النصيحة الغالية"، دار الهاشمي للنشر والتوزيع، باتنة، الجزائر: (د.ت).
- ⁴ - السائحي مناف، "سماء الدين والقدر العجيبة"، رسم، محمد كشيدة، ألوان، ياسين شعبان، منشورات السائحي، 2009 م، الجزائر، دعم من وزارة الثقافة في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب.
- ⁵ - بن هدوقة، عبد الحميد، قصة "النسر والعقاب"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1984م.
- ⁶ - الهيثي الهادي نعمان، ثقافة الأطفال، سلسلة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت، ع123، 1988 م، ص181.

7. قائمة المراجع:

1. بن هدوقة، عبد الحميد، قصة "النسر والعقاب"، (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م).
2. حجازي محمد المبارك، قصة "النصيحة الغالية"، (باتنة، الجزائر: دار الهاشمي للنشر والتوزيع، (د.ت)).
3. السائحي مناف، "سماء الدين والقدر العجيبة"، رسم، محمد كشيدة، ألوان، ياسين شعبان، منشورات السائحي، 2009 م، الجزائر، دعم من وزارة الثقافة في إطار الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب.
4. عبد السلام يحي، سيمياء القصّ لأطفال في الجزائر الفترة مابين 1980-2000، أطروحة دكتوراه، جامعة سطيف، الجزائر، 2010-2011.
5. نجم محمد يوسف، فنّ القصة، ط5، (بيروت: دار الثقافة، 1966م).
6. الهيثي الهادي نعمان، ثقافة الأطفال، سلسلة المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت، ع123، 1988م.